تجليات السلطة في رواية القرية المصرية المعاصرة

حنان حامد محمد محمد

باحثة دكتوراة قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة قناة السويس.

ملخص: لا يزال مفهوم السلطة عبر العصور يمثل علامة مؤثرة في المجتمعات الإنسانية خاصة في المجتمعات المتخلفة التي عاشت عمرًا من القهر والإهمال والتخلف.

وكانت الرواية واحدة من أهم الأجناس الأدبية التي عالجت تجليات السلطة وأنواعها ومدى تأثيرها الداعم في سيرورة الحياة الإنسانية خاصة لدى المجتمعات القروية التي لاتزال تعيش على الهامش بعيدًا عن مدن المركز والمتن الاجتماعي والاقتصادي.

ولقد لوحظ استمرار بل تغلغل فعل الهيمنة السلطوية على حياة الإنسان داخل هذه القرى، وكانت سلطتا الفقر والمرض من أهم أنواع هذه السلطات وأكثرها تأثيرًا إذ ظل **عقابيلهما** يؤثر بشكل مباشر في نفس الإنسان القروي منتجًا _أي هذا الأثر السلطوي_ أشكالا من الانزواء على النفس والقهر الاجتماعي والتهميش، ذلك لأن هاتين السلطتين طالما ارتبطتا معا، فكانت كل واحدة منهما، وكأنها تستدعي الأخرى لتهيمن في النهاية **صورة** بؤس القرية على الإنسان وتكشف عن بؤسه وعبثية حياته ووقوفه مضطرًا عن مواصلة ركب التطور الإنساني.

ولعل روايات مثل (**طبيب أرياف** لمحمد المنسي قنديل), (**والقيراط الخامس والعشرون** لمحمد حمزة العوني), وروايتي (**عزبة الباشا والقرية لإبراهيم القاضي**), (ومراكب الليل لمحمد العون) (ورواية **أيام لا تنسى** لكمال رحيّم), كانت عينات كاشفة عن استمرارية هاتين السلطتين رغم أننا نعيش في ألفية جديدة, الأمر الذي يكشف خللا واضحًا في الأنظمة الحاكمة في تحقيق أبسط أنواع القيم الإنسانية من عدل ومساواة, وأن الريف المصري لايزال يعيش حالة تاريخية من التهميش مما ينذر ويؤشر على وجود خلل في منظومة التطور الشامل التي تحاول أوطاننا أن تلحق

به. وقد قمت بالاعتماد على المنهج التحليلي الثقافي لمناقشة هذه الموضوعات التي حاول الروائيون أن يقدموها في شكل فنّي يحقق التأثير ويهدف إلى تغيير الواقع.

الكلمات المفتاحية: السلطة ـ القرية ـ الرواية ـ الهامش ـ المتن

Abstract:

This study examines the personality of (the intellectual as a model) in the contemporary novelist discourse, and reveals his role in societal transformations, as he is the largest participant in making them in his society. Through the topic presented, the class of intellectuals in our living reality is the raw material through which novelists broadcast their ideologies and conscious ideas so that the reader can enlighten and have awareness of his rights and duties, not only at the time he is contemporary with, but by his present. He can benefit from the heroic positions that these people have achieved.

Intellectuals in their struggle against injustice and to preserve their freedom and the rights of their families from the weak who have secured them for their present.

The intellectual may change his giving role in the societal struggle according to the changes taking place throughout the course of human time in terms of cultural, social, literary and artistic aspects.

Through the multiple patterns of this model in the Egyptian village novel, the reader can identify the defects of the negative intellectual and avoid them, and benefit from the positive role of the intellectual and its advantages, and think about the reasons and circumstances that produced the personality of the anxious intellectual, who in turn swings between positive and negative, and decides which path to choose.

It relied on the method of cultural criticism in analyzing "a sample of Egyptian novels" that established its theme on the Egyptian village in the third millennium.

Keywords: Narrator- Positive educated- Negative educated- Transformed educated.

مدخل

لقد تطرقت الكثير من الروايات المصرية إلى الأحداث الواقعية في مصر, فتناولتها من جوانب شتى بقصد تعريتها أو انعكاس صورتها وكأن السرد الروائي ما هو إلا مرآة فنية يمكن من خلاله اختزال الواقع بشكل أكثر بساطة, ولكن يبقى الروائي مسؤولا عن تشكيل عالمه الذي يعتمده من الواقع بشكل فني خارج التاريخ, ليحقق هدفه من كتابة فنيّة إبداعية تأريخية, تحتكم عوالمها ورموزها إلى أطر من الجمالية, هذا وقد شهدت القرية المصرية_ خاصة_على مدى القرن العشرين تكريمًا على يد مجموعة من الأدباء المبدعين الذين كرّسوا جلّ اهتماماتهم لكتابة واقع قُراهم المرير وما شهدته القرى من بؤس وتخلف عن ركب الحضارة, وفقر مدقِع, وحاجة وعِوز

لأهم مظاهر الحياة, وكان من بين هؤلاء: عبد الرحمن الشرقاوي, وعميد الأدب العربي طه حسين, ويوسف القعيد, وبهاء طاهر, وتوفيق الحكيم, وخيري شلبي, ويوسف إدريس, وفتحي غانم, وضياء الشرقاوي, وثروت أباظة, ومحمد عبد الحليم عبد الله, وأخيرًا القاص محمود البدوي[1](١٩٠٨_ ١٩٨٦م) وغيرهم الكثيرون.

ورغم كون الموضوع واحد وهو "عالم القرية المصرية" إلا أن الطّرق قد تعدّدت في كيفية معالجة الرواية لقضايا القرية و واختلفت الكيفية التي استلهم الأدب منها موضوعاته الأخرى, خاصة بعد ما نالت القرية اهتماما مكثّفا من معظم الأدباء منذ ظهورها على الساحة الأدبية في القرن الماضي انطلاقا من رواية زينب ١٩١٤م, والتي قد سبقها عملان أدبيان أخران هما(الفتى الريفي والفتاة الريفية ١٩٠٥) للأديب محمود خيرت, لكنهما لم يكونا بذات المستوى والقيمة الأدبية لرواية "زينب" التي عبّرت عن حال البؤساء من المهمشين والمعذبين والفقراء، فكانت الرواية هي الفن الأساسيّ القائم باستطاعته على التأريخ من دون عدّها مصدرًا يمكن للمؤرخ الرجوع إليه عند توثيق مادّته التاريخيّة؛ فصارت من حينها على علاقة وثيقة بالواقع، بل كانت مرآة صادقة تعكس ما فيه من أحداث.

لكن تغايرت منطلقات الرواية المصرية بدءًا من خمسينيات القرن العشرين, والتي صبغها الطابع الرومانسي, فقد كانت هذه الفترة الأخيرة مصدرًا للثراء الروائي الجريء في تناوله للقضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كان يضجّ بها الرّيف المصري, وفي ذلك قد أسلفنا الذكر عن إنتاج عبد الرحمن الشرقاوي لثلاث مؤلفات روائية جادة هي "**الأرض**" و"**قلوب خالية**" و"**الفلاح**" , كما تناول قضايا الريف أيضا الكاتب محمد عبد الحليم عبد الله[2], كما تجلّى هذا الارتباط بالريف عند الكثير من الروائيين المصريين[3], ولكم عبّرت تلك الروايات أجمعها بصدق وثراء بالغين عن التغيرات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية الطارئة, والتأثير الواضح على المجتمع بدرجة أشمل وأعم وعلى الشخصية المصرية بالقرية بشكل خاص.

ويُعدّ الفقر بوصفه قضيّة خضع لسلطانها وهيمنتها المصريون عبر العصور, إلى درجة أنه شكّل في حد ذاته لونًا من ألوان السلطة التي لا تقل قوة وتأثيرًا عن السلطات المادية, فالفقر وإن

كان أمرًا معنويًا إلا أن شواهده المادية الملموسة جعلت منه سلطة قاهرة حاصرت الفلاحين, من هنا فإن الفقر يُعدّ لونًا من ألوان السلطة التي وقع الفلاحون تحت أثرها وهيمنتها ولم يستطيعوا الانتصار عليه أو هزيمته وتغيير واقعهم المؤلم, لذا فإنني أعد الفقر في حد ذاته سلطة تشبه إلى درجة كبيرة السلطة المادية التي لم ينجح الفلاحون في الثورة عليه, فظل يحاصرهم منذ زمن حتى وثّقه الروائيون في أدبهم المعاصر.

وهذا المبحث يعرض لأكثر أنواع السلطة والقمع الذي مورس على القرية المصرية كما جاء بالروايات محل الدراسة، نبدأها بالفقر وبؤس القرية:

(أ) الفقر، وبؤس القرية المصرية

لطالما ارتبط الفقر في سائر الأدبيات العربية والعالمية بالمجتمعات البدائية والقروية التي تعيش بعيدًا عن المدن أو على هامشها، فأضحى أكبر دليل على بؤس القرية المصرية ومن أقوى المؤثرات المستبدة بعالم القرية، مما دفعت به إلى اللاحياة والتأخر عن ركب الحضارة والمدنيّة قرونًا من الزمان، بدءًا من عصر الفراعنة حتى عصرنا الراهن، فالفقر أجبر أهل القرى على الاستكانة والرضى بالهوان، كما أكرههم أيضًا على السّير وراء العادات البالية السلبية رغم اللحاق بركب الحضارة، نذكر مثالا على ذلك:

الاعتقاد بالعلاج والتداوي بالطرق التقليدية غير المنطقية(كالزّار والأحجبة والتّعاويذ و طاسة الخضّة, والعلاج والتداوي بخبرة حلّاق الصحّة والمجبّراتي) مما يشيد بالجهل وضيق اليد أيضًا, فربما لو تيسّر للقرويين الحال لذهبوا إلى الأطباء لتلقي العلاج وقد تناولت روايات القرن الماضي بعضًا من هذه العادات مثل(قنديل أم هاشم) ليحيى حقي وفي قنديل أم هاشم يظهر جلياً الصراع المحتدم بين النظرة التقليدية للتداوي من الأمراض والاعتماد على الخزعبلات والسحر والشعوذة، وبين الطريقة العلمية الجديدة والمستحدثة التي جاء بها الطبيب القادم من فرنسا بعد دراسته الطب هناك ومقاومته للجهل المسيطر على أذهان أهل الحي، وفي هذا العمل القصصي المبكر، أراد حقي أن يقول إن تغيير المجتمعات لا يأتي فجأة بل تدريجياً, الأمر نفسه في رواية (الأيام) لطه

حسين, والتي أدى فيها الفقر والجهل معًا إلى النتيجة التي وصل إليها البطل, فكانت الضريبة أن كُفّ بصره, بدلا من علاجه بالطرق التقليدية.

أسبابه:

وقد توافرت أسباب عدّة للفقر, نذكر منها مثلا: أشكال الطبقية, التي تسيّدت المجتمع القروي منذ عصور الإقطاع والتي تسيّدت فيها الطّبقة المالكة, واستعبدت المأجورين بأراضيهم الزراعية, فقد بدأت مساوئ سلطة الفقر بالريف المصري منذ قبل ثورة ١٩٥٢م, منذ أن استحوذت مجموعة كبيرة من ملاّك الأراضي الزّراعية عليها دون البقيّة من الفلاحين والذين كانوا يمثلون الغالبية العظمى من سكان الريف, ورغم ذلك إلا أنهم لم يهنأوا حتى بزرع أيديهم, فقد كان نصيب الأسد يخص الأثرياء من مالكي تلك الأراضي, أما الفلاحون فلم يتبقّ لهم سوى الُفتات الذي يسد رمقهم من الجوع فقط ويأخذونه منّة من أولئك الأثرياء*[٤]

واستمرت هذه الحال فترة طويلة حتى جاءت الثورة ومزّقت الفوارق بين تلك الطبقات، لكن ظهرت مسببات أخرى لفقر القرويين مثل أعداد السكان المضطردة، وتدخّل الحكومة في رفع أسعار السّلع، مما أدّى للعوز المادي لمقوّمات الحياة الأساسيّة، من مأكل ومسكن وملبس. فتسبب كل ذلك السابق ذكره في وجود عمالّ التراحيل، والاضطرار للعمل بالسّخرة التي تسببت بموت مئات الآلاف، لكن لا أحد اهتم لموت هؤلاء أثناء عملهم بالسّخرة بل كانوا يغتمون حينما يفكرون في توفير المأكل والمشرب لهم، فكان موتهم أهون من عيشهم، ومن هنا قام الكتاب بتوثيق أيام الشقاء أثناء العمل بالعنوة والسّخرة ومع عمّال التراحيل والعذابات التي واجهها الفلاحون خلالها كما سيأتي ذكره في رواية من جراب الكنغر.

وقد كان جيل السبعينيات من الأدباء من أبرز الأجيال المعاصرة القادرة على التعبير عن الواقع؛ رغم تصدر جيل الستينيات معظم المشهد الأدبي, فقد عاش هذا الجيل هزيمة ١٩٦٧م وموت عبد الناصر وعصر الانفتاح وحرب أكتوبر؛ فكان جيلًا قادرًا على الاستفادة من كل التجارب السابقة وتوظيفها لصالحه, ومن هذا الجيل محمد المنسي قنديل, في روايته(طبيب أرياف) وتحكي الرواية عن صورة بائسة من صور الريف المصري في أواخر السبعينيات وأوائل

الثمانينيات, لا تختلف كثيرا في بؤسها عن ذات البؤس الذي يرزح تحته الريف المصري منذ عهد الفراعنة رغم الثورات والتطور الزمني الهائل في العالم غير أن الريف لايزال خارج الزمان والمكان.

وقد كشفت أسطر تلك الرواية أيضًا شبح الفقر الذي ينهش في أجساد أهل القرى وقد نقلها قلمه بمنتهى المعاناة قائلا:

(ألمح أجساد أهل القرية وهم يسيرون خارجين من بيوتهم الواطئة متجهين للحقول, يحمل الرجال الفئوس والمعاول وتحمل النساء صرر الطعام, وتسير الحيوانات محنيّة الرؤوس, تدرك أن هناك يوما من الشقاء الطويل في انتظارها, العجائز في آخر الصف, بعضهم يتوكأ على العصي ويجاهدون في السير, كأنّهم موتى تمّ بعثهم للتوّ يسعون عند مولد الضوء كما فعلوا من آلاف السنين, طقس أسطوري يتم بجلال يليق بلحظة الخلق الأولى....من خبرتي الحياتية أعرف نوعية الطعام الموجود في هذه الصُّرر ليس أكثر من أرغفة الخبز ورءوس اللّفت المخلل, حتى قطع الجبن تبدو باهظة الثمن بالنسبة إليهم, كيف واصلوا الحياة عبر كل السنوات بهذا القدر الضئيل من الطعام؟)[٥], وبهذا يسطّر قنديل الضنك المعيشي الذي يحياه أهل الصعيد تحت ظلال العوز والحاجة, فتلك الصّرر لا تكاد تحمل بداخلها سوى أرغفة الخبز ورؤوس اللفت المخلل, وتلك البيوت التي وصفها الكاتب(بالبيوت الواطئة), فيه من الدلالة على الفقر وملامحه ما يغني عن وصف ما بداخلها, فهم ينتقلون من هوان إلى هوان أكبر, ومن شقاء بيوت لا حياة بها إلى العمل بحقول تفوح فيها رائحة الشقاء والألم.

ومن أهم الدلالات الكاشفة عن استبداد الفقر بالفلاحين كانت مشاهد البيوت الطينية والحافلة أحلاهم المكتظة بركابها من الإنسان والحيوان، والوحدة الصحية البائسة والمفلسة من مكونات الحياة، كل هذه المشاهد وغيرها تؤكد ما تم ذكره من بؤس الريف المصري عبر أجيال وقرون، رغم أن أحداث الرواية تجري في أواخر القرن العشرين.

وعن سطوة الفقر وهيمنته في رواية **(القيراط الخامس والعشرون)** يقول العزوني مشيرا إلى غناء الفلاحين للترويح عن أنفسهم أثناء العمل بالحقول تحت حرارة الشمس في شهر بؤونة الذي

يقتاظ بحرارته، ورغم ذلك ليس أمامهم سوى العمل بتلك الحقول، ولو بأجر لا يساعدهم على الحياة، ليس أمامهم إلا الرضى والتسليم:

(هذه الكلمات يا طالما غنّاها الفلاحون غنّاها بعض هؤلاء وآباؤهم وأجدادهم, وهم يعملون في هذه الأرض نفسها, أيام كانت ملكا لخورشيد باشا, وكانت يوميّة الواحد منهم طوال النّهار لا تزيد عن قرش صاغ واحد, يا طالما غنّوا هذه الأغنية وهم يجمعون القطن في عزّ بؤونة, غنّوها في ليالي الحصاد المقمرات, غنّوها في القرية وغنّوها مع عمّال التراحيل وهم يشقّون التّرع ويقيمون الجسور, وربما غنّاها أجدادهم البعيدون وهم يعملون بالسّخرة في بناء الأهرام, لتكون مقابر للفراعنة الآلهة العظام, وغنّاها جدودهم الأقربون وهم يحفرون بالسّخرة ترعة المحموديّة وقناة السّويس)[٦], وما الدافع لجعل هؤلاء الفلاحين يقبلون بالمساومة مع تلك الصفقة الخاسرة مع الهوان والفقر والقبول بالعمل بالسخرة ومع عمال التراحيل إلا الفقر وسطوته؟!.

ويقول الكاتب على لسان الحاج بدراوي تذكرًا منه لأيام البؤس والفقر:(**كنت تذهب يا بدراوي مع أبيك إلى تلك الأراضي البعيدة, كنتم تبيتون في العراء, ولم يكن طعامكم إلا الجبن, والمشّ ودود المش وأعواد السّريس والجعضيض, ابتسم بدراوي لهذا الخاطر وقال في نفسه, ألم يكن هذا هو طعامنا الأساسي..حتى في القرية؟)**[٧], والحاج بدراوي من النبلاء من الفلاحين في القرية الذين تحسّنت أوضاعهم الاقتصادية بعد الثورة, والذي لا يزال يدين بالفضل والامتنان لجمال عبد الناصر الذي صان كرامتهم من وحل العبودية لدى الأثرياء في حقولهم, ولا زال يتذكر تلك الأيام القاسية في أيامه القديمة ويحمد ربّه على ما وصل إليه.

ويواصل **العزوني** مشيرًا لمظاهر **الفقر** التي عانى منها الفلاح وقد ثار عليهم أفندي متعلّم كما أسموه من جرّاء استمراء القرويين هذا الهوان:(**دعاه أبوك إلى الطّعام, لكنّه رفض بشدة, طلب فقط جرعة ماء, قمت أنت لتناوله القلّة, رفعها إلى فمه ليشرب لكنه فجأة وضعها دون أن يشرب, يبدو أنه عاف أن يشرب منها, رغم شدة الحر والعطش و لمّا رأى الرّيم الأخضر المختلط بالطّين والتراب يغلّف جوانبها,...وما إن انضم إليكم الرجل ووضع في فمه لقمة**

حتى التهب فمه, واحمرّت شفتاه, ثمّ أمسك عن الطّعام....., وبعد أن سمع الأفندي الجد يقول اللهمّ أدمها نعمة واحفظها من الزوال, هاج وثار وقام يصيح في ثورة عارمة: دي نعمة دي؟, وكمان مش عايزها تزول؟ يا أخي حرام عليك، أمال تاكلوا إيه؟ تاكلوا تبن؟ تاكلوا برسيم؟، وانطلق الرجل مهرولا وهو يردد من بين أسنانه بغضب وحسرة: مفيش فايدة في الفلاحين؟ مفيش فايدة في مصر")[٨], وبهذا يستنكر الكاتب حالة التسليم اللامنتهية من الفلاحين بهذا الشقاء الذي توارثوه كابرًا عن كابرٍ وكأنّه هويّتهم. ورغم ذلك يسألون الله في دعائهم أن يديمها نعمة ويحفظها من الزوال، فقد استقرّ بأذهانهم التسليم للهوان والرضى به لأقصى درجة ممكنة.

أما عن **مظاهر الفقر** في (**عزبة الباشا**) فيقول الكاتب:(**لا أحد من أهل القرية يملك فيها شبرا.. ولا حتى بيته الذي يأويه، إلا العمدة هواري، فلديه خمسة أفدنة من الأرض، ومنافسه شاهين، الذي يمتلك مثلهم، وإن كانوا على أطراف القرية_أو أرض الباشا، وأقصى ما يحلم به أحدهم أن ينال رضاه، ويصبح خولي أنفار، ليرحم من العمل الشاق، والعمل في السخرة أيام فيضان النيل**)[٩], فالحالة الاقتصادية للعمدة قد أعرب عنها الكاتب كأحد قرائن الفقر لأهل قرية عزبة الباشا، فعندما لا يملك العمدة ذاته سوى خمسة أفدنة فيحق لبقيّة الفلاحين ألا يمتلكوا سهما واحدًا.

ورغم ما يعانيه أهل العزبة من فقر وحاجة، يقول الكاتب في حديث أحد الشخوص عن حالة الترف التي يهنأ بها تيسير باشا:(**_ ده بياكل خمسين بيضة في الطقّة يابلد!، رد عليوة والبؤس على وجهه العابس: واحنا هنا بنغمّس العيش الدرة بالميّة**)[١٠], وهنا يعقد إبراهيم القاضي مقارنة موجزة عن حالة طبقتين متضادتين في ذات البلدة: طبقة تيسير باشا مالك العزبة وطبقة أفراد الفلاحين المهمّشين الذين يقتاتون على الخبز المصنوع من دقيق الذرة منغمسًا بالماء، بينما الآخر يأكل خمسين بيضة في الوجبة الواحدة.

وأخيرًا يرسم محمد العون في رواية مراكب الليل أثواب الفقر والعوز التي كان يرتديها الفلاحون قبل عبد الناصر على لسان **الحاج عبد الواحد** بعد تسلّمه حجة الخمسة فدادين من الرئيس عبد الناصر وتحوّل حالتهم من الفقر والمهانة إلى الاستقرار النسبي الذي يضمن للفلاح حياته الكريمة في مجتمعه:(**قال في نفسه والله مصر حلوة يا ولاد, راحت أيّام الفقر والذّل وأصبحت من الملاك ياعبد الواحد, من كان يصدّق!...لا يستطيع أن ينسى كسرة الظهر من الشمس للشمس, من شروقها إلى غروبها, وهم منحنون على الفأس لا يرفعون ظهورهم, وعلى رأسهم الخولي بالخيزرانة يراقبهم بعين حادة وقلب بارد, كأنهم ليسوا أقاربه وأهله)**[١١], هكذا شعر **الحاج عبد الواحد** بلذة الكرامة بعد الهوان والشقاء, ورغم كونه في أشد لحظات السعادة إلا أنّها جعلت ذاكرته تنشط بذكريات تلك الأيام التي تجرعوا فيها الذل من الخواجات والأجانب يقول الكاتب:(**نصف ساعة فقط هي كل ما ينالونه من راحة, بعد أذان الظهر يجلسون في أماكنهم ليتناولوا الغداء, كل واحد منهم يحمل معه غداءه في منديل, رغيف عيش وقطعة جبن أو بصلة أو قرطاس ملح وكمونا, ثم يقومون إلى أقرب قناة ري أو إلى الترعة ليغتسلوا بسرعة ويتوضئوا ليلحقوا صلاة الظهر قبل انقضاء نصف الساعة)**[١٢], هكذا قام الكاتب بالتنويه لمدى المهانة الإنسانية التي رضخ لسطوتها الفلاحون ولم يجدوا لكشف الضرّ عنهم تبديلا, سوى الثورة ولذة النصر التي أذاقهم إياها عبد النّاصر, فأصبحوا يرفلون في ثوب الكرامة مرة أخرى تحت زعامته.

ومرّة أخرى يطل بنا الكاتب برؤيته الخاصة التي تدعم أيديولوجيته من خلال الأشخاص في كون الرئيس الجديد قد تدهورت البلد على يديه للأسوأ يقول العون: (**الرزق شح وعادت أيام الفقر من جديد, فقر من نوع آخر مختلف عن فقر زمان, لكنه فقر على أية حال, زمان كان الخير" كثير" ولم يكن معنا المال, الآن المال موجود والخير قليل, الغلاء جعل جميع النّاس فقراء, راحت البركة وضاقت الدنيا)**[١٣].هكذا وثّق الكتّاب المعاصرون مظاهر الفقر وبؤس القرية وأثرها المستبد على الفلاحين, حتى بعدما تبدلت الأحوال وأصبح الفلاحون مالكين لأراضيهم

التي يعملون بها, إلا أن البركة قلّت بارتفاع الأسعار وتفشي حالة الغلاء التي أصبحت توازي مساويء الفقر من قبل.

وقد لوحظ أن مشاهد الفقر في الروايات محل الدرس قد اعتمد مؤلفوها في بناء مشاهدهم السردية على دلالات بعينها وهي دلالات الطعام والشّراب المتداول لدى الفلاحين وقتها, فقد اعتمد الروائيون على كشف وبيان حالة الفقر والعوز التي عانى منها الفلاحون وذلك بالتركيز على ذِكر نوعية الطّعام والأكل الذي يقتاتونه لسدّ جوعهم, فقام معظمهم بذكر أرغفة الخبز والمشّ والسريس والجعضيض والبصل الناشف والملح والكمون ويضعون الكل في صرّة من القماش وهم يذهبون إلى حقولهم للعمل بها في أثناء النهار, ولا أحسب الحال يتغير حين عودتهم لمنازلهم, فربّما كل ما تناله معداتهم من نصيب هي تلك الوجبة الهيّنة طوال يومهم, فقد كانت أنواع الطّعام البسيطة المتواضعة بمثابة سيمياء وعلامات دالّة كشفها الكتّاب لتؤكد ذاك الفقر المهيمن على الفلاحين والذي شكل في ذاته سلطة ظالمة لهم.

وقبل الانتقال إلى سلطات أخرى ارتبطت بالفقر كالمرض والجهل وهيمنة العادات المتوارثة أتوقف قليلا، لأذكر أن سلطة الفقر وقسوة البؤس في القرية المصرية قد تسببت بطريق مباشرة في بعض المتغيرات على أنماط أخرى من التفكير للمعوزين وهي الخروج من تلك القرية التي ضاقت عليهم بأرزاقها فطلبوا الخلاص من الفقر والبؤس، خارج أرضهم فكانت ظاهرة الهجرة (هجرة الشباب) بنوعيها الاعتيادية وغير الشرعية.

(الصراع حول الأرض والهجرة من القرية).

واستنادًا لإحصائيات علم الاجتماع فنسبة الذين يعملون تحت مسمّى العمال الزراعيين أضعاف الطاقة الاستيعابية تبعًا للإمكانيات المتاحة واحتياجات العمّال الزراعيين أو الذين يمتهنون الزراعة كمهنة أساسية، مما جعل هنالك فائضًا في العمالة الزراعية وكان يجب أن تتوافر فرص عمل ملائمة لديهم داخل القرى وفي مناطق الاستصلاح الجديدة في أنشطة أخرى تتناسب مع مؤهلاتهم وإمكاناتهم، وتغريهم بأجور أعلى.

وقد أدّت الزّيادة السّكانية وتوريث الأرض وتقسيمها إلى انخفاض مستوى الملكية الزراعية في هذه الأُسر وانخفاض الدخل الأسري مما اضطر بعض أفراد هذه الأسر إلى الهجرة الداخلية أولا مما شكّل تجمعات كبيرة في المحافظات الكبرى حيث يتوافر العمل ويزداد الطلب على الأيدي العاملة، بعيدا عن حرفة الزراعة وكان نتيجة هذا كله ظهور **نوعان من الهجرة:**

١) **هجرة داخلية:** إلى العواصم والمراكز أو إلى أي محافظة، طلبا للمال وتعدد فرص العمل بأجور أعلى من العمل بالزراعة، وبالتالي تسببت في وجود ظاهرتين هما:

أ) **ظاهرة تريّف الحضر:** وقد تجلّت هذه الظاهرة حينما نقصت الخدمات بالقرى فأدى عدم إمكانية تلبية المتطلبات المتزايدة إلى ظهور مشكلات اجتماعية جديدة داخل هيكل المدينة, وزاد من هذه المشاكل انتقال السلوكيات والعادات وطريقة الحياة القرويّة إلى المدن والتي تسببت في ظهور التجمعات العشوائية متواضعة الإمكانات على أطراف المدن, ففي رواية **عزبة الباشا** يشير الكاتب إلى هذه الظاهرة بشخصية يوسف أفندي الذي ذهب للمدينة من أجل العلم(**فقد تربى في البندر بعدما توفي والده في السّخرة, وماتت أمه بداء الكوليرا الذي ضرب القرية فاصطحبه خاله معه إلى البندر, وهناك دخل المدرسة, وانضم إلى إحدى الجماعات الشيوعية, وبعد أن نال شهادة المعلّمين عاد إلى قريته, حيث نضاله مع الفلاحين الكادحين في سبيل توعيتهم)**[١٤], هذا نموذج لشخصية هاجرت للمدينة طلبا للعلم ثم عادت لقريتها مجددا لاستئناف حياتها وعملها.

ونموذج آخر ينقله لنا كمال رحيم في رواية(أيام لا تنسى), على لسان (علي) حفيد العمدة هارون, والذي قد اختار له أن يدرس بكلية حقوق القاهرة, واشترى له شقة بالحسين حتى يتردد على زيارته ومتابعته, يقول:(**صحيح أننا كنا نتردد عليها كثيرا, سيدنا الحسين بالذات, فالجد في صغره قضى شطرا من حياته في هذا المكان وإلى الآن يزوره ويبقى فيه باليوم واليومين والثلاثة, وكان يأخذنا معه أحيانا نأكل من يد(الحاج أمين) صاحب دكان البسبوسة بأول شارع الغوريّة , و نمرّعلى دكان(البنّان) بالمغربلين, وخمسة أو ستة أكياس بن على الأقل, وإلا(أبو هاشم) ملك الكفتة والكباب, كان هو الآخر طقسا من الطقوس, ورغم كل هذا**

لم يخُل بخاطري أني سوف أعيش في مصر بصفة دائمة, كانت فعلا مشكلة)[١٥], وهكذا انتقل علي للحياة الدائمة بمصر من أجل استكمال رحلة تعليمه بالجامعة, تاركًا حياة القرية مؤقتا حتى يعود لها مرة أخرى.

ونموذج آخر يمثّل الهجرة الداخلية برواية **عزبة الباشا** وهو شخصية(رجب العجوز) الذي تمرّد على العمل بالزراعة بقريته وذهب للعمل بالمدينة طلبًا للراحة, لكنه فشل وعاد يحكي قصته: **(يحكي أن عزبة الباشا كانت ملكًا للفلاحين, وكان لأبيه عشرة أفدنة كاملة, وكان الولد الوحيد, لكنه تمرّد على العمل في الزراعة, وسافر إلى القاهرة وعمل عربجيًا... وتراكمت الديون على الفلاحين, حتى حجزت عليها مصلحة الأملاك, وبيعت بمزاد علني, واشتراها خورشيد باشا...عاد رجب العجوز إلى القرية بعد أن نال نصيبه من الفشل, مثل غيره من أبناء القرى الذين يذهبون إلى المدينة, معتقدين بأنها الجنة التي أعدت لهم, لكنهم بعدها يكتشفون أنها نار وهلاك. عاد ليرتمي في حضن القرية، فكان أهل القرية أهله، إذا أحس بالجوع أو العطش، يركل بقدمه باب أي دار فيها فيلقى الود)**[١٦]. وهذا يشير إلى أن فكرة الانتقال للعيش في المدينة لدى البعض ممن لا يرغبون بالشقاء في الأرض الزراعية، قد تبوء بالفشل في أغلبها ولا يجد القروي بدًا من الرجوع مرّة أخرى لربوع قريته وجيرانه فتحتضنه مجددًا وتصونه من حياة التشرد البائس التي كانت تنتظره في المدينة.

وقد استغل الكتّاب هذه القضايا وقاموا بعقد مقارنة ما بين حياة الشخصيات في المدينة ومآبين انتقالهم للقرية والتأقلم على حياتها البائسة التي تضج بالفقر والجهل والعوز, ورواية "طبيب أرياف" للمنسي قنديل من الروايات التي صورت الانتقال من المدينة للعمل بالقرية تحت سطوة القهر وسلطة حكومة أمن الدولة التي أجبرت الطبيب للذهاب للعمل بإحدى الوحدات الصحية بضواحي الريف المصري في قرى الصعيد, وهذا ما كان له أثره من التبعات والمشاق التي تحمّلها هذا الطبيب من صعوبة الحياة التي لا تتناسب معه وتلك القضية تشبه إلى حد كبير رواية(**أيام الجفاف ليوسف القعيد)** والتي يوظف فيها نصه الأدبي مشيرًا بحكمة إلى الفارق الكبير بين القرية

والمدينة بين(قرية الرزيمات التابعة لحوش عيسى بحيرة) والتي انتقل للعمل بها مدرسًا في مدرستها المتواضعة وبين مدينة المنصورة التي كان يعيش فيها البطل من قبل، وفي هذا العمل صور القعيد نبض القرية الحقيقي وتلك المشاعر الدفينة لدى المعلم الوافد عليها والذي شعر في موسم الجفاف بنوع من القهر والظلم الاجتماعي الذي تعيشه القرية والمفروض عليها عندما يأتيها موسم الجفاف ومعه تجف المشاعر وتبور الأرض وتخور قوى الفلاحين البائسين الباحثين عن أرزاقهم وسط الأراضي الشراقي, تمامًا مثلما تناسى الطبيب حالته البائسة في أجواء الصعيد وصبّ اهتمامه بفلاحي القرية ومرضاها الذين توافدوا عليه أشباه أحياء, يكاد الموت يتلقفهم, لولا دعمه ومساندته الطبيّة والإنسانية لهم.

ب) **ظاهرة تحضّر الريف**: وتتمثل في تحوّل المباني الريفية على نحو طراز المدينة، بل وتقليدهم في سلوكيات المعيشة والمأكل، وتتجلى خطورة هذه الظاهرة في أنها تؤدي إلى الزّحف العمراني على حساب الأراضي الزراعية وتناقص مساحتها بمعدلات مضطردة، تتسبب في فقدان آلاف الأفدنة سنويّا، والتي تستهلك لأغراض السّكن والطّرق والمصانع وغيرها والتي لا يمكن استرجاعها مرة أخرى لأغراض الإنتاج الزراعي والغذائي. وهذا ما تمّ طرحه من خلال رواية مراكب الليل, فيقول الكاتب:(**يمشي صامتا مع أفكاره بينما ينظر ولداه بغبطة إلى أعمال الحفر والإنشاء, كانا فرحين بحركة البناء والتشييد في قريتهم...الوحدة الصّحيّة, المدرسة, الجمعية الزراعية, المصنع الجديد, ويرى كل منهما بعين الإعجاب أن العمران الدائر حولهم سيجعلهم مثل أولاد البندر الأفندية!**)[١٧], ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد من المظاهر وحسب وإنما(**بعدما أخذت طلائع الانفتاح تصل كشذرات في صورة سلع غريبة ليس للناس بها معرفة من قبل تأتي من المدن القريبة ومن العاصمة فئات غنية بدأت في الظهور تشتري الأراضي وتدفع بسخاء ترتفع عمارات أسمنتية من طابقين أو ثلاثة تحل محل بيوت الآباء والأجداد الطينية, سيل من البضائع المستوردة رأسًا من أوروبا تغرق الأسواق والدكاكين, معلبات ومشروبات وملابس وأجهزة كهربائية تباع بأسعار مناسبة وفي مقدور الجميع.. لحظة من الزمن لم تستمر طويلا, بدا فيها أن الحياة تسير نحو الأفضل, حالة من الرّواج والوفرة سادت المجتمع حتى في الحشيش**

والمخدرات)[١٨], هكذا عرض محمد العون في روايته أهم ملامح تحضر الريف والتي تجلى أثرها فور الهجرة إلى المدن والمحافظات, بل ونتيجة السّفر إلى الخارج أيضًا جعلت القرى وأهلها يتأثرون تمامًا في مظاهر المعيشة والملبس والمسكن, **ولكن جاء هذا العمران الطارىء أشبه بالرّقع في الثوب إذ أضحت القرية خليطا غير منسجم من البيوت الطينية المتواضعة البناء, جنبا إلى جنب أخرى مستحدثة بالخراسانة والرفاهية الشاحبة.**

وعندما فتحت أبواب سوق العمل في الدول العربيّة للعمالة المصرية, كان من أسبق الناس إليها أهالي المراكز والنجوع والقرى بحثًا عن المادة التي تيسّر الحالة المعيشية على الأسر, وكان نتيجة ذلك إهمال الأراضي الزراعية وتفكك بعض الأسر نتيجة لغياب عائلها المدبّر لشؤونها, ومن ضمن النتائج أيضًا اتخاذ قرارات جادة من هؤلاء المغتربين بالبناء على الأراضي الزراعية للتوسيع على أسرهم من الضيق والازدحام الأسري, مما أدى إلى ارتفاع أسعار الأرض الزراعية نتيجة لزيادة السيولة المادية في أيدي القادمين من الخارج, ويؤكد هذا ما جاء برواية مراكب الليل يقول الكاتب:(**اتفق رأي فاروق وعامر على أن شراء أرض زراعية في المناطق المستصلحة حديثا والقريبة من زمام البلد أفضل من الشراء في الأراضي القديمة, فالأراضي الطين أصبحت غالية كما أن العثور على مساحة تزيد على عشرة أفدنة قطعة واحدة أصبح في حكم المستحيل, فبعد وفاة معظم الآباء والأجداد وتوزيع ميراثهم أصبح الفدان الواحد يمتلكه أفراد عديدون قد يزيدون على العشرة في بعض الأحيان, مما جعل الأرض تباع بالقيراط لا بالفدان)**[١٩], وبهذا أصبحت القرى طاردة لأهلها للعمل بالخارج, وتوافرت الأموال لديهم ولم يجدوا أمامهم بدّا من أن يقوموا بشراء مساحات من الأفدنة ببلادهم تصلح للزراعة حاليًا وللاستثمار فيما بعد إما بالبناء عليها أو بيعها بأسعار أعلى, ولو استمر الزحف الجائر هكذا لفقدت مصر مساحتها الخضراء بالكلية والتي تعد من أجود الأراضي الصالحة للزراعة, ومن هنا تجلت الهجرة الشرعية وغير الشرعية إلى دول الخارج المجاورة, وسنتناول القضية تفصيلا كما جاءت بعينة الروايات.

٢) أ) هجرة خارجية شرعية:

وتمثلت في البعثات العلمية أو التعاقد للعمل بالخارج عبر سبل شرعية وقانونية، فلما تجلّت آثار النعمة على الأثرياء ممن هاجروا وعادوا من الخارج، كان هذا دافعًا وحافزًا ممن يرقبونهم من شباب القرية الآخرين، ومن ثمّ قرّر هؤلاء الشباب السّفر لتقليدهم.

وكان من أهم أسباب هذا النوع من الهجرة, الهروب من الفقر والبحث عن المال ومصادر الرزق أو طلبًا للعلم إمّا عبر البحار أو عبر الصّحراء ووجهة الشباب فيها كانت معظمها إما إلى إيطاليا أو فرنسا أو ألمانيا أو اليونان. يقول محمد العون في رواية مراكب الليل:(**هناك مايزيد على سبعمائة رجل وشاب من أبناء القرية وعزبها يعملون في إيطاليا وفرنسا بالإضافة إلى عدد قليل سافروا منذ سنوات قليلة إلى اليونان, التي فتح الطريق إليها أحد أبناء عائلة عبد الواحد أيضا, فما إن استقر هناك حتى سافر إليه أصدقاؤه وزملاء طفولته وبعض أقاربه)**[٢٠], هذا فيما يخص الهجرة الشرعية بالطرق التي تحفظ للإنسان كرامته وحقوقه وحياته على الأرجح.

٢) ب) هجرة غير شرعية:

وتقوم تلك الهجرة بالاتفاق مع جماعات مخصّصة لهذا النوع من السفر, يسمونهم (سماسرة), فهم يأخذون مبلغًا من المال في مقابل تهريب مجموعة من الشباب أغلبهم من القرويين الذين ضاقت سبل العيش أمامهم وقرّروا الهروب من البطالة, ويحلمون بوضع أقدامهم على أول دروب الثّراء, وتوديع الفقر وأسبابه, ولكن تلك الطريقة غير آمنة لكلا الطرفين:" **إنهم مقبلون على تجربة قد تكلفهم حياتهم, ارتباك, حيرة, شيء من تردد اللحظة الأخيرة, حسم الموقف والإقدام, العمر واحد والرب واحد, الموت أفضل من الفقر, الموت أفضل من الحياة في هذه البلد ومن الحياة التي نعيشها فيها, لو لنا رزق ونصيب هناك سنعبر بسلام)**[٢١], هكذا حسم الشباب قضية الهجرة والتي آثروا الموت في سبيل السعي على لقمة العيش عن الحياة وهم في حاجتها.

ولم يعرض الكتّاب المعاصرون قضايا الهجرة غير الشرعية في رواياتهم إلا بقصد التنويه للابتزاز والهوان الذي يواجهه مثل هؤلاء الشباب من عصابات التهريب كما يطلق عليهم, يقول الكاتب:(**فبرغم المبالغ الكبيرة التي دفعها كل منهم والشيكات التي وقّع عليها الآباء**

والإخوة فإن المعاملة كانت قاسية وتتسم بالغلظة وتصل إلى حد الإهانة, رجال عصابات التهريب في حالة توتر دائم لا يقبلون معها أي نقاش بشأن مايلقونه من أوامر, يرفعون مسدساتهم وأسلحتهم النارية مهددين بقتل من يعارضهم أو يتسبب في أي مشكلة لهم, قالوا بعبارات صريحة أنه لا ديّة لأي مصري يقتل أو يموت في هذا المكان!)[٢٢], هذا ما سرده العون في رواية مراكب الليل مؤكدًا على المخاطر التي يواجهها هؤلاء الشباب فلا يستطيعون التراجع تاركين مصيرهم في أيدي من لا يرحم, وقد ينجحون في وصول إلى بلدان أخرى يظلون بها متخفين, أو يعترضهم الموت في الطريق فيكون مصيرهم الغرق في البحار أو تنهشهم ضباع الصحراء.

و نفس المأساة ينقلها قنديل في رواية (**طبيب أرياف**), وقام بإبراز هذه القضايا لشباب القرية الذين طحنهم الفقر فهربوا عبر الصحراء إلى إحدى الدّول النّفطية المجاورة (ليبيا) فتاهوا في دروب الصحراء التي لم يتقنوا مخابئها قبل وصولهم لأعمالهم المهاجرين من أجلها, وكانوا فريسة للضباع التي مزقتهم وآمالهم بعدما تخلى عنهم بدو الصحراء ونهبوا ما اقترضه هؤلاء الشباب لأجل البحث عن عمل بعيد عن أرض الوطن(مصر), ليعودوا جثثًا تشهد بتخلّي الوطن عنهم, كما تشهد بأنهم على هامش الحياة لا يشعر بهم سوى ذووهم الفقراء أمثالهم.

فضلا عن المشاهد المأساوية للصحراء بقسوة عواصفها الرملية وتيهها وابتلاعها لمن يجهل دروبها ودفنه بين طيات رمالها، يقول قنديل على لسان حال (عيسى) زوج (فرح) العاطل:

(يقول **شيخ العرب، الرجل الذي يقودنا جميعًا عبر البحر الرمال، إنه يعرف مدقّا رمليا يخترق هذا البحر ويأخذنا مباشرة إلى الحدود حيث يمكن عبور الأسلاك الشائكة. لا أحد يضيع وهو يتبعه,... يقول فيما يشبه التّوسل: أرجوك إنها فرصتي الوحيدة للخروج من سجن القرية, لن تتكرر إلا بعد عام وربّما لن تتكرر على الإطلاق,....لا أريد أن أظل جالسًا مستندًا إلى الحائط أراقب الذين يأتون والذين يرحلون)**[٢٣], هكذا يوضح الكاتب أن القرية أصبحت تمثل بالنسبة للشباب العاطلين مجرد سجن دفين لن يتخلصوا من عذاباته إلا بالسفر ولو

بطرق غير مشروعة تودي بحياتهم, لكنهم لا يحصدون من تلك الرحلة سوى جثثهم في أكفان بيضاء يقول:(**كانوا يعرفون من البداية أنها رحلة للموتى, يفردون أكفهم وهم يقرءون الفاتحة, يرفعون أصابعهم لأعلى وهم يتلون الشهادتين, يلفون الجثة بأسمالها وبما عليها من رمال ودماء, وكأنهم قد تعرضوا لهجوم ضارٍ من حيوان أو إنسان حاول أن يدافع عن نفسه بقدر مايستطيع, كان جسده متصلبا وجلده جافا تماما, وعلى وجهه وذراعيه آثار لمخالب وأنياب, بطنه مبقور, الجزء الليّن الذي التهمته الضّباع كانت العاصفة بالأمس قد ملأتها بالرّمال جعلتها أقل بشاعة, لم يكف أنّه مات جوعًا وعطشًا ولكن جسده أيضا تعرّض للامتهان يحكمون الأربطة حول رقبة الجثة وقدميها, ثم يحملونها إلى مؤخرة السيارة... تخيّم على الصحراء كلها رائحة الموت**)[٢٤], إن بشاعة المشهديّة السردية تشير إلى أقسى نتائج هيمنة الفقر واستبداده بهم, والتي عانى منها شباب القرى فأُكرهوا على الهجرة مواجهين أهوال الموت الذي كان أرحم بهم من براثن الفقر وتبعاته التي لم ترحمهم في أوطانهم فهربوا تاركين الأوطان يسكنها الفقر بمرارته, باحثين عن ينابيع العسل المرّ في غير أوطانهم. ولكن يأتي جمال حمدان مؤكدًا في كتابه الموسوعي عن (شخصية مصر) أن مشكلة مصر الأساسية (**لا السكان ولا الفقر.. ولا حتى الاستعمار في الماضي أوإسرائيل أو البترول العربي في الحاضر, هي المشكلة الأم في كيان مصر, وإنما مشكلة المشاكل, وقضية القضايا هي قضية الديمقراطية | الديكتاتورية أو نظام الحكم المطلق, إنها هي جماع مشكلة مصر كلها: شخصية مصر ومصير مصر, بل بقاء مصر, شخصية المصري, كرامة المواطن المصري, في كل هذا وغيره فتش عن الديمقراطية أو غيابها فإنها هي حاكمها ومقررها وضابط إيقاعها, مثلما هي مفتاح حلها جميعا**)[٢٥], وأنا أتفق معه تمامًا فربّما كان في احتفاظ المصري بحقوقه في الديمقراطية والتعبير عما ينقصه وعمّا يوفر له حياة كريمة تخلو من الفقر والمرض.

ب) المرض:

وياطالما ارتبط الفقر لدى الشعوب الكادحة والطبقات المطحونة بالمرض فكلاهما صنوان، فقد ارتبطا ببعضهما ارتباطًا تاريخيا وارتباطًا واقعيا فكلاهما يؤدي للآخر ويدعم بقاءه واستمراره، فلا نبعد حينما نذكر أن من ضمن مظاهر الفقر انتشار وتفشي الأمراض، وبهذا أصبح المرض امتدادًا طبيعيًا للفقر يتجذر في ثنايا الفلاحين ومن الصعب جدًا اقتلاعه والتغلب عليه.

وقد اهتم بهذا قلم المنسي قنديل في الحديث عن تلك الظاهرة _التي بدت هي الأخرى وكأنها سلطة مهيمنة على أرواح أهل القرى_ في روايته(طبيب أرياف) فبحكم طبيعته المهنيّة التي قضى فيها سنوات قبل التفرغ للأدب الروائي, وتتجلى سلطتا الفقر والمرض اللتان تتحالفان ضد القروي الضعيف الذي يمثل موت الإنسان الحي بالبطيء قبل أن يموت, يقول قنديل:(**البلد كله مريض وكل هؤلاء الناس أموات)**[٢٦], فالفقر قد تسبب في تفشّي الأمراض بين القرويين بالصعيد وأصبحت ملامحهم يكسوها الموت, مما أجبر طبيب الأرياف بحكم إنسانيّته أن يداويهم ويطبّبهم ما أمكن, ويتفكر في همومهم وأحوالهم ليتناسى همومه يقول قنديل:

(أغرق تدريجيا في العمل، في أوجاعهم وآلامهم، كانوا مصابين بكل الأمراض، أمراض الفقر وأيّام الشّقاء التي لا تنتهي...، أم تحمل طفلا ضامرًا، يعاني من سوء التغذيّة ماذا يمكن أن أفعل له؟ شاب يشكو من أن بوله كلّه دم، كليته تم تدميرها بالكامل، أشخاص يعانون من أورام ودمامل متقيّحة وجروح ترفض الاندمال، ليس هناك مرض بسيط، لا يستسلمون ولكنهم يعانون في صمت لأنه لا توجد وسيلة غير المعاناة، يكفّرون عن كل ذنوب الطّاعة والاستخذاء التي ارتكبها أجدادهم، أمراض تمتد من شقوق الأرض إلى عروق دمائهم)[٢٧], وبهذا يكشف قنديل المستور، ويفشي أسرار الصّمت التي يعاني منها هؤلاء المهمّشين بلا بوح أو اعتراض، وبمنتهى الألم يتعايش مع آلامهم تمامًا مثلما فعلوا هم.

ويقول الكاتب مؤكدًا على تفشي الأمراض بين أهل القرى في الصعيد: **(أدرك أن جذور المرض مقيمة في مصر بينما الصّحة عرض زائل، مثلما تم خلق الظلام وجعله مقيمًا في مصر، راقدًا في ثنايا تربتها ووضع النور في أماكن أخرى،.... يريدون منّي أن أراهم كأشخاص،**

كمصائر مختلفة، ولكني كنت عاجزًا عن ذلك، كانوا كتلة متصلة من البؤس، تعرف أن ما تأخذه هو أقل من القليل ولكنّها لا تملك إلا أن ترضى)[٢٨], هكذا الصورة في صعيد مصر، قام قنديل بتوثيقها وأعرب عنها في مشهد سردي يوازي الواقع بل لا يصل درجة الألم والمعاناة التي يحياها هؤلاء الضعفاء المرضى بالواقع المعيش.

وفي مشهد سردي أخير يندد بسطوة المرض المتجذر بين تربة أهل الصعيد يقول:(**تتوافد الوجوه المتعبة والأجساد الضامرة والبشرات المنهكة, أمراض قديمة, مزروعة في شقوق هذه الأرض, لاتقدر عليها الأدوية ولا التعاويذ, لايعرفون بالضبط ممّ يعانون, إحساسهم فقط أنّهم غير جديرين بالحياة, لايملكون إلا الشكوى حد التّوسل, والقبول بأي دواء حتى لو كان عديم الفاعليّة)**[٢٩], فواقعهم المرير أسوأ من الوصف, ويعلو على المشهدية معاناة, فهذا شاب يذهب إليه ويكاد الموت يتخطفه, يقول عنه:(**نظرت إلى وجهه المجهد الذي امتص المرض منه ماء الحياة,...وصل جسده إلى درجة من المرض لايمكن أن توجد إلا في مصر)**[٣٠], في هذا العالم المهمّش لابد أن تتغلغل درجة المرض حتى سابع طبقة, تماما مثلما وصل الفقر, فهذا يؤدي إلى ذاك ولا مناص, لأن هذه الآلام تربتها خصبة تصلح لإنتاج المزيد والمزيد من الأمراض والأوجاع.

وأخيرًا ينقلنا العون إلى مشهدية عانى منها الفلاحون في ظل الفقر والمرض, فقد كان من ضمن نتائج الفقر أن فقد الفلاح عبد الواحد ثلاثة من أبنائه لأنه لا يملك المال الذي يساعده على السفر للمدينة للكشف وتلقي العلاج يقول:(**تذكر عبد الواحد بأسف, وهو يخرج من الوحدة الصحية حاملا ابنه الرضيع جمال, وأولاده الثلاثة الذين ماتوا وهم صغار في مثل عمر جمال, لم يجد لهم علاجًا عندما أصيبوا بالحمى وارتفعت حرارتهم ولم تُجد الوصفات العلاجية المتوارثة معهم برغم أنها نجحت مع أشقائهم السّتة, أما مسألة عرضهم على طبيب فكانت ضربًا من المستحيل, مع أن معظم الأطباء في ذلك الوقت كانوا يمتازون بالرحمة والإنسانيّة ويراعون حالة الفقراء من مرضاهم, لكن المشكلة كانت في تكاليف السفر إلى المركز أو المدينة القريبة حيث يوجد الأطباء, فلم يحدث في تلك الأيّام أن كان في استطاعة**

عبد الواحد أن يجد في جيبه أو بيته مالاً للسفر إلى الطبيب ناهيك عن أجرة الكشف وثمن الدواء)[٣١], بحسب الوصف السابق فلم يترك الكاتب ما يوضّح ملامح ومظاهر المرض الذي عانى منه الفلاحون ولم يسطّره, فقد كانت الأمراض تنشب أظفارها في أعناق جميع الفلاحين ولا ينجو منها إلا قلة منهم.

من وراء هذا يمكن أن نخلص إلى الآتي:

أولا: أن تاريخ الأرض والفلاح المصري يمثلان بدورهما منعطفا هاما في تاريخ رواية القرية المصرية بالمعنيين الاجتماعي_ والسياسي الأدبي، فمنذ الخمسينيات وقد بدأت رواية القرية في كشف المستور بين السلطة والأيديولوجيا في المجتمع المصري، وفي توضيح الطبيعة القسرية لهذا التحالف الذي اتخذ منذ ذلك الحين شكل الواقعية الاشتراكية، ورواية القرية أصبحت هي الوسيط الأيديولوجي الراصد لشتى السلطات القهرية على الفلاح وأرضه على وجه الخصوص.

ثانيا: كان الفقر والمرض ولا زال يمارسان سلطتاهما الظالمة على الفئة المهمشة من القرى المصرية منذ القرن الماضي وحتى القرن الحالي, ولا يجد الروائيون بدًا من تسليط الضوء على حيواتهم التي تقع على حافة الموت, ولازالت الطبقية تعبث بأقدارهم التي وضعتهم تحت براثن الأغنياء ممن يملكون الأراضي الزراعية التي لا مصدر لهم لضمان حياة كريمة إلا من خلال العمل فيها كمستأجرين, ينشدون قوت يومهم فحسب.

هوامش البحث:

---

[١]) الراحل الكبير محمود البدوي: رائد القصة القصيرة في مصر , وقد أسهم إسهاما حقيقيا في التعبير عن آمال الشعب في تغيير واقعه منذ صدور قصته الرحيل ١٩٣٥م, تناول حياة الريف والفلاحين وصوّر طباع أهل الصعيد وأخلاقهم في محاولة منه للنفوذ إلى أعماق الفلاح المصري وتبرير تخلفه وما يعانيه من قسوة الإقطاع وقد بلغت أعماله القصصية التي كتبها عن الريف والفلاحين في الصعيد تسعة وثمانون قصة، ولأن محمود البدوي عاش ردحا من الزمن بين أحضان الريف هناك في الصعيد وفي كنف أبيه العمدة وأمه ابنة عمدة القرية المجاورة، فقد مكنّه هذا كثيراً في الوصول إلى مكنون الشخصية القروية، موضحاً أسباب الجهل الذي تعاني منه هذه الشخصية بسبب

الإهمال وقلة التعليم بتجاهل المؤسسة التعليمية لقرى الصعيد قبل وبعد الثورة والمستوى الاقتصادي المتدني لهذا المجتمع الذي انعكس على بقية حياته.

[٢]) محمد عبد الحليم عبد الله: رواياته" **شمس الخريف**١٩٧٦م، **وبعد الغروب**١٩٤٩م، ولقيطة **وللزمن بقيّة** وشجرة **اللبلاب**، وقد كان أقل وضوحًا في طرح قضاياه من "عبد الرحمن الشرقاوي".

[٣]) من هؤلاء الأدباء: الكاتب عبد الفتاح الجمل في روايتي (**الخوف** ووقائع **عام الفيل**)، وعند الكاتب حسن محسب في روايتي (وراء **الشمس والعطش**)، وليس بالأخير عبد الوهاب الأسواني في روايتيه (**وهبّت العاصفة وسلمى الأسوانية**)، وسلمان فياض في" **أصوات**", وخيري شلبي في **الوتد**، ويحي حقي في **صح النوم**، ومحمد مستجاب برواياته عن القرية وهي (**القربان، وعاريا مضى**) **وقيام وانهيار آل مستجاب** ١٩٩٩م، **إنه الرابع من آل مستجاب٢٠٠٢م**. وأخيرًا يوسف القعيد برواياته (**وجع البعاد وأخبار عزبة المنيسي وأيام الجفاف**).

[٤]) *واستنادا لعلم الاجتماع، فلم تمض بضع سنوات بعد الثورة حتى كان على القطاع الزراعي أن يتحمل الأعباء لتحقيق النمو الصناعي في مصر، وأصبحت ملكية الأراضي الزراعية في أيدي القطاع الخاص وتم التحكم فيها بشدة من خلال احتكار الحكومة لعملية توريد المدخلات الرئيسية لهذه الأنشطة، وفرض عضوية الجمعيات الزراعية التعاونية والتسليم الإجباري للمحاصيل والتسعير المركزي للحاصلات الرئيسية، هكذا استمر الفقر عبئا تنوء به غالبية سكان الريف على الرغم من تنفيذ خطط للتنمية لم تغفل في إطارها النظري على الأقل. وقد أدى هذا الانحياز ضد الزراعة_ فضلا عن سياسة التحرير التي بدأت مع سياسة الانفتاح في بداية السبعينيات_ إلى تغيرات كبيرة في الأهمية النسبية لمصادر الدخل ونمط الحياة في المناطق الريفية, بيد أن زيادات الدخل في المناطق الريفية سواء كان مصدرها سياسات التحرير أو تحويلات العاملين, لم يكن لها أثر فعال في التخفيف من وطأة سلطة الفقر في القرية, على الرغم من انخفاض نسبة القرويين الواقعين تحت خط الفقر, إلا أن تفشّى وباء الفقر وهيمنته يرجع إلى نقص القدرات البشرية(خاصة في التعليم والصحة والثقافة والمشاركات المجتمعية), ويرجع أيضا إلى تقسيم الأراضي الزراعية إلى قطع صغيرة الحجم وتفتت وتبعثر الحيازات واعتبار ذلك قيدًا رئيسيا يعيق دون زيادة مستويات الاستثمار وأنماط الاستغلال في القطاع الزراعي, وتضاؤل فرص الوصول إلى الأسواق وتقليل عائد الأرباح من المساهمة في حركة التصدير للخارج.

[٥]) قنديل: طبيب أرياف، ص١٦

[٦]) محمد حمزة العزوني: القيراط الخامس والعشرون، مصدر سابق، ص ٢٧

[٧]) المصدر السابق نفسه ص٣١

[٨]) محمد العوني: مصدر سابق ص٣٢

[٩]) إبراهيم القاضي: عزبة الباشا ص ١٤

[١٠]) إبراهيم القاضي: عزبة الباشا، ص١٠٠

[١١]) محمد العون: مراكب الليل، مصدر سابق، ص ٩

[١٢]) محمد العون: مراكب الليل، مصدر سابق، ص ١٠

[١٣]) محمد العون: مراكب الليل، ص ٩٠

[١٤]) إبراهيم القاضي: عزبة الباشا ص٩٥

[١٥]) كمال رحيّم: أيام لا تنسى، ص١٤٦

[١٦]) إبراهيم القاضي: عزبة الباشا ص ١٣٥

[١٧]) محمد العون مراكب الليل، ص١٨

[١٨]) محمد العون: مراكب الليل، ص٦٦

[١٩]) محمد العون: مراكب الليل، ص٩٠

[٢٠]) محمد العون: مراكب الليل، مصدر سابق ص٦

[٢١]) محمد العون: مراكب الليل ص ٣٦

[٢٢]) محمد العون: مراكب الليل، مصدر سابق، ص٦

[٢٣]) محمد المنسي قنديل: طبيب أرياف، مصدر سابق، ص٢٢٤

[٢٤]) محمد المنسي قنديل: طبيب أرياف ص ٢٧٠

[٢٥]) جمال حمدان كتاب شخصية مصر، الجزء الرابع، ص ٦١٢

[٢٦]) محمد المنسي قنديل: طبيب أرياف، دار الشروق، الطبعة الأولى ٢٠٢٠, ص ٥١

[٢٧]) المصدر السابق نفسه ص ١٨

[٢٨]) محمد المنسي قنديل: طبيب أرياف، مصدر سابق، ص٢٠, ص٢١

[٢٩]) محمد المنسي قنديل: طبيب أرياف، مصدر سابق، ص٣٩

[٣٠]) محمد المنسي قنديل: المصدر السابق نفسه، ص ٧٥

[٣١]) محمد العون: مراكب الليل، ص ١٧ وص١٨